مدراج الأمن وأثره في الحد من الأوبئة دراسة في البلاغة القرآنية

م. د. هبه رحيم شيحان
كلية المعارف الجامعة/ قسم اللغة العربية
البريد الالكتروني/ cgcexgvc@gmail.com

تاريخ الطلب : ٢١ / ٨ / ٢٠٢١
تاريخ القبول : ٢١ / ٩ / ٢٠٢١

ملخص البحث

إن من أعظم النعم التي أنعمها الله وتفضل بها على جميع خلقه هي نعمة الأمن وبانعدامه تنعدم السعادة والراحة والطمأنينة ، فالخائف لا يأمن إلا في أخذ الحيطة والحذر للحصول على هذه النعمة، ولا سيما في مأمنه أي بيته ، لذلك جعل الله الامن والسكينة في بيته فقد قال في محكم كتابه : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً) وما نراه في عصرنا هذا مما حلّ بالعالم أجمع من وباء كان من الأحرى أن نعود إلى دستورنا وكتاب الله العزيز وما زخر به من الآيات البينات الدالة على أن يكون البيت الملاذ الأول والمأمن من هذه الجائحة وما سنقوم به من دراسة لنبين ما في القران الكريم من إعجاز بلاغي دال على قدرة الله وعظمته بأسلوب بليغ جم ، ومما يدل على أن البيت هو الامن والسكن للحد من هذا الوباء قوله تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً) فهو موضع الراحة والأمن من كل المخاوف التي تحيط بالإنسان.

كلمات مفتاحية/ مدارج ، الأمن، البيت، البلاغة.

Summary

One of the greatest blessings that God has bestowed and bestowed upon all his creation is the blessing of security, and in his absence there is no happiness, comfort, and reassurance, for fear is safe only in taking precaution and caution to obtain this blessing, especially in his safe, that is, his house, so God made

security and tranquility in his house, he said In the text of his book: ((And when we made the house as the likeness of people and security)), and what we see in our time of this which has befallen the whole world of an epidemic, it was rather to return to our constitution and the book of God Almighty and the abundant verses that indicate that the house From this pandemic and what we will do to study the rhetorical miracles of the Holy Qur'an that indicate God's ability and greatness in an eloquent manner.

And what indicates that the house is security and housing to reduce this epidemic, the Almighty said: ((By God He made for you from your homes a house)) It is a place of comfort and security from all the fears that surround man.

Keywords : Runways, security, house, rhetoric.

مقدمة

الحمدُ لله الذي جعل كتابه سكنا للخائفين ، وأوحى إلى النملة بنباهة العارفين ، وأخص بذكري ما قال بقوله : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً) (النحل : ٨٠) ، وأصلي وأسلم على صاحب السلام والأمان ومصباح نور الظلام محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، وبعد ...

قد منَّ الله بنعمة الأمن والأمان على عباده وحذر من المخاوف التي تحيط بالإنسان على جميع الأصعدة ، ولا سيما في القرآن الكريم ، فمن تبعه كان آمنا من جميع المخاوف والمحاذر ، ومن عصاه كان من الخائفين .

وقد سأل الحجاج الجوهري يوما :(ما النعمة؟ قال: الأمن، فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش، قال: زدني، قال: الصحة، فإني رأيت السقيم لا ينتفع بعيش، قال: زدني قال: الشباب، فإني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش، قال: زدني قال: الغِنَى، فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش، قال: زدني، قال: لا أجد مزيداً) (١).

إذن فنعمة الأمن لا ينتفع بها إلا من آمن وجاهد نفسه على الحفاظ عليها فكان حريٌ بنا أن نحرص عليها في زمن الوباء والبلاء زمن الجائحة الكاسحة ، التي قطفت أرواحا منها ما كانت بذرة ، ومنها

ما كانت ثمرة ، ومنها ما بلغ بها العمر فكبرت واجتاحتها بطرفة عين .

من أجل ذلك كانت هذه الرسالة بابا من أبواب التذكير والتحذير لمن استهان بها وأنكر وجودها فكانت رسالتنا (مدراج الأمن وأثره في الحد من الأوبئة دراسة في البلاغة القرآنية) للحد من هذا الوباء ، ولبيان الاعجاز القرآني والبلاغي في هذه المدارج .

فقسمت البحث بدءًا بالتمهيد بمعنى المدارج في علوم العربية اللغة والاصطلاح ، معللة سبب اختيار هذه اللفظة دون غيرها مع فائدة الأمن في الحد من الأوبئة ، والمبحث الأول مدارج الأمن في البيوت بحسب المنزلة ، كالبيت الحرام (مكة المكرمة) شرفها الله ، وبيوت الانبياء (عليهم السلام) الثابتة والمتنقلة ، ثم المبحث الثاني مدارج الأمن في البيوت العامة منها بيوت من غير تدخل الأنسان كالجبال، وبيوت عامة الناس (المبنية) كبيوت الحضر المبنية من الحجر ، وبيوت الريف أو المسافرين كالخيم والقباب ، والقسم الثالث البيوت المنحوتة من الجبال والمبحث الثالث مدارج الأمن في بيوت الحيوانات منها بيوت الحيوانات الآمنة كبيوت النحل والنمل ، والقسم الآخر : بيوت الحيوانات غير الآمنة كبيوت العنكبوت وقد ذكرت من باب ضرب المثل وأخذ العضة ، ثم خاتمة بأهم النتائج التي خرج بها البحث .

وكل المباحث تتضمن دراسة بلاغية أبين فيها أوجه الاعجاز البلاغي واللمسات البيانية ، وما فيه من تحذير للبقاء في البيوت في حال واجه البشرية أو الحيوانات خطر كالأوبئة والاسقام والكوارث إلخ ... وبيان نعمة البقاء في البيوت لما فيها من السكينة والطمأنينة وفوائد أخرى تحصل عن طريقها نعمة الأمن .

فكانت هذه الدراسة رسالة نبين بها أثر الأمن في الحد من الأوبئة التي تنتشر في المجتمعات والحد منها في زمن كثر فيه الوباء وقل فيه الدواء .

اللهم لا داء إلا وجعلت له دواء سائلة الله عز وجل أن نأمن من هذا الوباء، ويصرفه عن المسلمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله والتابعين.

التمهيد :

- المدارج في علوم العربية وكتب التعريفات:

المدارج لغة : من (الدَّرَجُ والدَّرَجَةُ في الرِّفْعَةِ والمنزِلةِ وتجمَعُ الدَّرَج ودَرَجاتُ الجِنانِ: مَنازِلُ ارفَعُ من مَنازِلَ) .[٢]

ومما ورد ذكره في المحيط بمعنى درج أي صعد في المراتب ، ومنه الطريق ورجع أدراجه أي في الطريق الذي جاء منه ، ومنه المسلك أيضا .[٣]

وفي اللسان (دُرَّجُه) بالتثقيل من المراتب بعضها فوق بعض .[٤]

وقيل في معناه : ما ورد في الصحاح : (و درَّجَهُ إلى كذا تَدْرِيجا و اسْتَدْرَجَهُ بمعنى أدناه منه على التدريج فَتَدَرَّجَ و المِدْرَجَةُ بوزن المترية المذهب والمسلك و الدَّرَجَةُ أيضا المرتبة والطبقة والجمع الدَّرَجَاتُ).[٥]

إذن لو تتبعنا المدلول اللغوي ينطوي تحت المنزلة والدرجة العالية أو المرتبة ، ومنه الطريق الذي يتفرع إلى طرق بمعنى المدراج، أو قد يرد بمعنى المذهب والطبقة ، فتعدد المعنى يصب في بوتقة واحدة وهو اختيارنا للمدرج أي بمعنى التسلسل أو التدرج فيما هو مهم عما هو أقل منه أهمية .

في الاصطلاح:

إن المتتبع لمصطلح المدارج أو الدرجة نجده يعطي دلالة المنزلة كما ذكر عند أبي عبيدة (ت٢١٠هـ)بقوله : الدرجة تعني المنزلة.[٦]

وتبعه في المعنى الاصطلاحي وزاد عليه الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) بقوله : (الدرجة نحو المنزلة لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود دون الامتداد على البسيط كدرجة السطح والسلم ويعبر بها عن المنزلة الرفيعة قال تعالى : (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) (البقرة: ٢٢٨) تنبيها لرفعة منزلة الرجال عليهن في العقل والسياسة).[٧]

ويعرف المناوي (ت ١٠٣١هـ) في مهمات تعاريفه : (الدرجة محركة نحو المنزلة لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود دون الامتداد على البسيطة كدرجة السطح والسلم ويعبر بها عن المنزلة الرفيعة).[٨]

فالمنزلة الرفيعة هي أعلى رتبة من غيرها وهذا لا شك فيه ؛ لأنها تؤول إلى الصعود والصعود هو أعظم وأرفع مكانة من النزول.

فائدة الحجر في الحد من الأوبئة .

يعتبر الحجر الصحي من أهم الوسائل الصحية في الحد من الأوبئة والأمراض المعدية ، فهو يُنبئ عن خطر محدق وسيل عارم يحرق الأخضر واليابس ، أفلا ندرك هذا الخطر كما أدركته نملة ؟ يا لنباهتها ! عندما أدركت الخطر ، رفعت صوتها وحذرت قومها وقالت : (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)(النمل:١٨) فلا بد لنا أن ندرك الخطر ونتعظ مما قالته حشرة صغيرة ، فالتحطيم ليس على مستوى الدهس فحسب بل على مستوى ما يحيط بنا من مخاطر سواء أكان على مستوى الأمراض المعدية أو غيرها من المخاطر كالزلازل والسيول الجارفة وبقية الآفات الخطرة .

وقد أشار النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) في أحاديث كثيرة ، فوائد الحجر الصحي وحذر من عدم الدخول إلى المدن والأماكن المصابة بالطاعون ، ومنع من الخروج منها) عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَسْأَلُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي الطَّاعُونِ فَقَالَ أُسَامَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم)« الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ »[٩].((

ومما ورد في الأثر أيضا : (أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَخْبَرَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ الشَّامِ عَنْ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ إِنَّ هَذَا السَّقَمَ عُذِّبَ بِهِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ قَالَ فَرَجَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ الشَّامِ).[١٠]

ومما ورد في الصبر على البلايا والثبات عليها ما ورد عن (جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) الْفَارُّ مِنْ الطَّاعُونِ كَالْفَارِّ مِنْ الزَّحْفِ وَالصَّابِرُ فِيهِ كَالصَّابِرِ فِي الزَّحْفِ[١١].

وهذا ما يتجلاه الإعجاز النبوي في أحاديث كثيرة في منع الشخص الماكث في

أرض الوباء أن يخرج منها حتى وان كان غير مصاب إن لم يستطع ، بل إن المنطق يفرض على الشخص السليم المعافى ان يفر من البلدة الموبوءة ، وان لم يستطيع الخروج فعليه أن يلزم مكانه فهو كالصابر في الزحف كما وصفه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) .

المبحث الأول

مدارج الأمن في البيوت بحسب المنزلة في القرآن الكريم

قبل البدء بالدخول في المباحث لابد لنا من الاشارة إذ يتبادر سؤال إلى الذهن ما الذي يأمن الإنسان إذا لحق به خطر أو وباء وما الذي يحد منه ؟ فستكون الإجابة البيوت، فالمدارج الآمنة تبدء في المساكن ، والبيوت على أنواع لذا تدرجنا في التقسيم بحسب المنزلة والمكانة .

أولا : البيوت الخاصة وتقسم إلى :

١- بيت الله الآمن .

٢- بيوت الأنبياء .

إن أول البيوت في الأرض إيجادا هو بيت الله الحرام ، وهو في مكة المكرمة شرفها الله، ويعد المكان الوحيد الآمن على وجه الأرض قال تعالى : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)(البقرة:١٢٥) .

من اللمسات القرآنية في الآية هو حلول الأمن في البيت الحرام ، ثم تكليف ابراهيم (عليه السلام) بالإمامة ، وأول ما يستوقفنا هو لفظة (جعل) بمعنى خلق أو وضع وهي تتعدى لواحد وهو البيت . [١٢]

وما ورد في لفظة البيت معرفة ، ذكر الفخر الرازي (٦٠٤هـ) فائدة يقول فيها : (أما البيت فإنه يريد البيت الحرام واكتفى بذكر البيت مطلقاً لدخول الألف واللام عليه إذا كانتا تدخلان لتعريف المعهود أو الجنس وقد علم المخاطبون أنه لم يرد به الجنس فانصرف إلى المعهود عندهم وهو الكعبة). [١٣]

وتوسع ابن حيان (ت ٧٤٥ هـ) في معنى البيت والمقصود به مكملا ما بدأ به الرازي في مفاتيحه ، يقول في تأويله : (والبيت هنا الكعبة على قول الجمهور ، وقيل المراد البيت الحرام لا نفس الكعبة ، لأنه وصفه بالأمن وهذه صفة جميع الحرم لا صفة الكعبة فقط ، ويجوز إطلاق

البيت ويراد به كل الحرم ، وأما الكعبة فلا تطلق إلا على البناء الذي يطاف به ، ولا تطلق على كل الحرم). [١٤]

إذن ما قُصد بالبيت الجزء والمراد الكل ، وهذا من باب المجاز المرسل وعلاقته الجزئية، فعبر بالجزء (البيت) أي الكعبة، والمراد الكل أي ان كل الحرم وصف بالأمن ، وهي صفة ملازمة لبيت الله الحرام إلى يوم القيامة وعامة له ، وكل ما ورد في هذه الآية من معاني بلاغية تعجز لها الألسن ، فالتاء في مثابة هي تاء المبالغة لكثرة من يثوب إلى بيت الله الحرام .[١٥]

فكما جعل فيه التاء لكثرة من يثوب إليه جعله أمنا من كل المخاوف والمفاسد ودرأ عنه كل اعتداء داخله .

ومن الفنون البلاغية أيضا الإيجاز بالحذف في قوله :(أمناً) ؛ أي ذا أمن على سبيل المجاز.

ومن البديع ما تلته الآية التي بعدها في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً) (البقرة: ١٢٦)، وفي موضع آخر قال :)وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)(ابراهيم:٣٥) .

ومن اللطائف التفسيرية للخطيب الاسكافي (ت ٤٢٠هـ) في تنكير (البلد) في سورة البقرة، وتعريفه في سورة إبراهيم بـ (البلد) قوله : (أحدهما : أن يقال : إن الدعوة الأولى وقعت، ولم يكن المكان قد جعل بلدا ، فكأنه قال : رب اجعل هذا الوادي بلدا آمنا ؛ لأن الله تعالى حكى عنه أنه قال :)رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)(ابراهيم: ٣٧) بعد قوله : اجعل هذا الوادي بلدا آمنا ، ووجه الكلام فيه : تنكير بلد الذي هو مفعول ثان ، وهذا مفعول أول. والدعوة الثانية وقعت ، وقد جعل الوادي بلدا، فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذي صيرته كما أردت ومصرته كما سألت ذا أمن على من أوى إليه ولاذ به .. فعرف حيث عرف بالبلدية ، ونكر حيث كان مكانا من الأمكنة غير مشهور بالتميز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس). [١٦]

ومن الفنون البلاغية في تنكير البلد ، إذ أسند الامن إلى البلد مبالغة ، وهذا من

باب إسناد ما للحال إلى المحل ، والمقصود أمن من يلتجأ إلى هذا البلد وهذا دليل على أمنه وخلوه من كل مكروه داخلي أو اعتداء خارجي ، سواء أكان من البشر أم من غيره .

كيف لا يكون أمنا وهو بيت الله الحرام ، فضلا عن أول ما بدأ به من دعاء سيدنا إبراهيم

(عليه السلام) هو الأمان ثم بالرزق الوفير لساكنه وخص منهم من أمن بالله ، وهذا شرط في حلول الأمن والخيرات التي تعم ساكنيه .

كما وان الله حافظ بيته مما حل بالعالم من وباء جاح الأرض ، وقطف أروح كثير، فما نلاحظه هو أن بيت الله آمنا من جميع هذه المخاوف والمهالك بحفظه تعالى ودعاء ابينا إبراهيم كما ذكرنا أعلاه.

ب- بيوت الأنبياء :

مما يستدعي هذا التدرج هو الأهمية في ذكر من هو أعلى مقاما وشرفا ممن هو أقل منه درجة فكان حري بنا أن نجعل بعد أشرف وآمن بيوت الأرض بيت الله الحرام ، نذكر في المنزلة بيوت الأنبياء ومنها على سبيل الذكر لا الحصر البيوت الثابتة ، والبيوت المتنقلة .

فالأنبياء (عليهم السلام) كانت لهم بيوتا آمنه. وهذا التقسيم الذي أوردناه بحسب ذكر الآيات القرآنية فأما البيوت الثابتة ، منها قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)(يونس:٨٧).

لقد أولى سبحانه لبيوت الأنبياء العناية الإلهية والمكانة الرفيعة، ليس من جانب العمران والفخامة بل ، ما شمله الجانب الروحاني في عبادتهم وسكينتهم داخل بيوتهم.

أمر الله سبحانه وتعالى موسى وأخيه هارون أن يتخذوا من جوف بيوتهم مساجد لشدة خوفهم من فرعون ، بعد أن قام بهدم المساجد . (١٧)

وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى جعل من البيت الملاذ الآمن للعبادة ، والطمأنينة من جرم فرعون واتباعه .

ومن اللمسات البلاغية ما ذكرها الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) : (كيف نوّع الخطاب ، فثنى أوّلاً ، ثم جمع ، ثم وحد

آخراً . قلت : خوطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبوآ لقومهما بيوتاً ، ويختارها للعبادة ، وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب عامّاً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأنّ ذلك واجب على الجمهور ، ثم خصّ موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض ، تعظيماً لها).[١٨]

فمن الفنون البلاغية في الآية ما لمح إليها الزمخشري هو فن الالتفات فبدأ بالتثنية بخطاب (موسى وهارون) ثم جمع القوم ، ثم افرد الخطاب اخرا ، ولكي نبين سر هذا العدول والتحول من صيغة إلى أخرى نلاحظ أن الآية مسوقة إلى التنبه لخطر ما إذا كانت الصلاة خارج البيت ، وخص بالتثنية موسى وهارون لكونهما أصحاب الرسالة ، أما كون الخطاب كان بعد ذلك بالجمع وعاما ؛ لكون الصلاة عامة للجميع فعمم الخطاب ، ثم انتقل الخطاب بعد ذلك إلى الإفراد ؛ لأن الرسالة مخصوصة بموسى (عليه السلام) وهارون تبع له ووزيره .

وهذه البيوت ثابته عدت للعبادة أي للصلاة ولغيرها فكانت مأمن الخائفين وملاذا لهم من القتل والاعتداء فهي من البيوت الثابتة والدليل على ذلك ما ذكره الله في قوله : (تَبَوَّءا) والتبوء يعني الاتخاذ والملازمة له.

أما بيوت الانبياء المتنقلة ، منها سفينة نوح (عليه السلام) وفي هذا قال تعالى :)رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً)(نوح:٢٨)

سفينة نوح أو فلك نوح (عليه السلام) صنعها للنجاة من الغرق أو الموت ، فمن ركبها كان آمنا من الغرق ، ومن عصى فقد أخذه الطوفان والعذاب ، سمى نوح (عليه السلام) من ركب السفينة بـ (البيت) ونسبه إليه ، وقد ذكرها أهل التفسير بالمسجد والمنزل والسفينة ومنهم الخلواتي (ت ١١٣٧هـ) قال : (أي منزلي وقيل مسجدي فإنه بيت أهل الله وإن كان بيت الله من وجه وقيل سفينتي فإنها كالبيت في حرز الحوائج وحفظ النفوس عن الحر والبرد وغيرهما).[١٩]

وزاد ابن عاشور في تأويله قائلا : (وعبر عنهم بمن دخل بيته كناية عن سكناهم معه، فالمراد بقوله: {دَخَلَ بَيْتِيَ} دخول

مخصوص وهو الدخول المتكرر الملازم. ومنه سميت بطانة المرء دخيلته ودخلته ثم عمم المؤمنين والمؤمنات، ثم عاد بالدعاء على الكفرة بأن يحرمهم الله النجاح) . [٢٠]

فكانت سفينة نوح كناية عن نسبة البيت الذي سكنه هو ومن تبعه من المؤمنين والمؤمنات ، ملاذا آمنا لهم ومكانا يتعبدون فيه ويدعون الله خلاصا من الظالمين والخارجين عن دينه .

ومن الفنون البلاغية الأخرى فن الاجمال والتفصيل ، فذكر الخاص أجمل الدعاء بالمغفرة خاصة له ولوالديه ، ثم فصل بها بدعائه للمؤمنين والمؤمنات عامة .

وخص والديه بالدعاء (فيجوزُ أن يكونَ أرادَ أباه الأقربَ الذي وَلَدَه، وخصَّه بالذِّكْر ؛ لأنه أشرفُ من الأم، وأَنْ يريدَ جميعَ مَنْ وَلَدَه مِنْ لَدُنْ آدمَ عليه السلام إلى مَنْ وَلده). [٢١]

ومن الفنون البديعة أسلوب الترقي والتدلي في الرتبة فبدأ بدعائه لنفسه ، كونه نبي وهذه أعلى رتبة ثم بأقرب الناس له والديه ، ثم تدرج من دخل بيته مؤمنا ، وخص المؤمن هنا من كان من أهل بيته آمن به وصدق رسالته ، ثم عمم الدعاء بالتدلي لعامة المؤمنين والمؤمنات.

ومن الملاحظ في ذكر الوالدين في دعائه هنا دليل على إخلاص من ولده والدعاء لهما بأسلوب التعميم والتغليب كون الأب حاملا نسبه ، والأم من ولدته وهذا من باب الإخلاص لهما بحسن الصحبة للوالدين ، وقد خص بالذكر الوالدين دون الأبوين ؛ لما ذكر في القرآن من مواضع يشتمل على أن ذكر الأبوين مع الميراث أعم من ذكر الوالدين ، فيذكر الوالدين إحسانا وإخلاصا لهما كما قال تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) (الإسراء: ٢٣) .

هكذا هي البيوت سواء أكانت بيوت ثابته يحل فيها الأمن والإيمان بجوفها، أم متنقلة كسفينة نوح (عليه السلام) داخلا فيها المؤمنين والمؤمنات ومن أخلص عبادته لله فعدت بيتا من بيوت الله ومأمنا لهم مما حلّ بقومه في الطوفان .

المبحث الثاني

البيوت العامة

أولا : بيوت من غير تدخل الإنسان

لقد من الله على خلقه بنعم كثيرة مهدت له سُبل العيش والدوام على هذه الأرض ، ومما ورد ذكره في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)(النحل:٨١)

يعدد الله تعالى النعم التي أنعمها على خلقه في هذه الآية المباركة وما سخره لهم ، وابتدأها بذكر الظلال والجبال التي يستكن بها من حرارة الشمس في الصيف، ومن برودة الشتاء وأمطاره وثلوجه وعواصفه، ومن المخاطر الأخرى التي تقدَّم عليه، فالكهوف حماية له من كافة المخاطر ، وهي الصورة الأولى التي عاشها الإنسان منذ آلاف السنين.

ليس هذا محسب فالمخاطر متعددة فقد تكون أمراضا متنقلة ومعدية وقد تكون حيوانات مفترسة أو ما شابه ذلك مما ذكر أنفا .

ومن اللمسات البيانية التعبيرية في هذه الآية ووجوه الإعجاز ما ذكره الدكتور فاضل السامرائي من نكتة إذ قال: (وهناك أمر آخر حسّن عدم ذكر وقاية البرد هاهنا، ذلك أن المقام في ذكر الحر لا البرد، فإن الإنسان يذهب إلى الظلال يقي نفسه الحر، ويذهب إلى الجبال في الصيف ليحتمي من الحر، فكان المناسب ذكر الوقاية من الحر، وأما الوقاية من البرد، فإن القياس يكون بذكر درجات الحرارة فإنها قد تتدنى وقد ترتفع)[٢٢]، وحكم بسياق الآية كونها ابتدأت بذكر الظلال ثم الجبال.

وقيل: (إنما خصَّ الحر بالذكر أيضا؛ لأن الأمراض الناجمة عنه أكثر من الأمراض الناجمة عن البرد، وإننا نسمع ما تبثه الفضائيات من تقارير علمية حول ما تسببه أشعة الشمس من أمراض نتيجة ما تحمله من أشعة)[٢٣]، فحذف ما لا يهم المتلقي واكتفى بذكر ما يهمه.[٢٤]

ومما يظهره السياق في الآية أسلوب «التقديم والتأخير» وما أثار الانتباه في تقديم «الظلال» على «الجبال» فبدأ بتقديم المنة بالأهم للمخاطب؛ وقاية

للحر، وما للظلال من التفضيل في التقديم (وتكون الظلال يحمي كلا من الإنسان والحيوان والنبات من مخاطر التعرض لكل من حرارة وأشعة الشمس لساعات أطول مما تحتمله قدرتها).[٢٥]

أما الجبال التي سخرها الله لهم منها الأكنان، وهي الكهوف والمغارات (وكان ذلك بتكوين الكهوف والغيران أو المغارات المختلفة... التي احتمى بها الإنسان الأول حتى تعلم فن صناعة الخيام، ثم فن البناء).[٢٦]

ومنه نفهم إن الظلال لا تزال مأوىً لجميع المخلوقات حتى قيام الساعة، أما الكهوف فهي مأوى للإنسان وإن اتخذها الحيوان فلا يستطيع النبات أن يحتمي بها، ومن جانب آخر فإنّ الظلال أكثر وأوفر من الأكنان، فلا نجد كهوفا ومغارات كما نجد ظلالا في كل مكان؛ لذا قدم الأهم على ما كان أقل منه موقعا.

ومما يلفت النظر في الآية تعدد النعم، بأسلوب بلاغي آخر هو أسلوب «التدلي في الرتبة»، إذ بدأ بذكر الأعلى «الظلال» ومصدره ناتج من ضوء الشمس مرتبط فيه، والدليل قوله تعالى(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) [الفرقان ٤٥]، ثم ذكر الأدنى منه «الكهوف والمغارات»، و ذكرت النكتة في سر التقديم والتأخير آنفا.

كما برز فن «التذييل»، فعندما ذكر النعم التي أنعمها الله عليهم وكرمهم بها، أشار إلى تأكيد النعم المذكورة بالإتمام.[٢٧]

وبرزت في الآية أسلوب بديعي آخر، جمع من جمال التركيب ودقة التعبير في آن واحد وهو «الإجمال والتفصيل»، فالجمع يبدأ بالتفصيل، ثم ينتهي بالإجمال، والآية بدأت بتعداد وتفصيل النعم بـ)مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً ، وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ(، فجمع عدَّة أمور تحت حكم واحد، فالبنية في الآية بدأت بالتفصيل وذكر النعم، ثم أجملها الباري بقوله (كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ...)، والملاحظ أن التراكيب مختلفة بدلالة التقابل بين عناصرها الواردة عن طريق علاقة التناظر .

ثانيا : بيوت عامة الناس (المبنية)

تعد بيوت العامة من البيوت التي يقوم الإنسان في بنائها ، لتكون الملجأ والمأمن له من جميع المخاوف من جهة ، والسكن والراحة من جهة أخرى . وسمي البيت المسكن ؛ لأنه موضع الراحة والسكن والأمن ، قال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ)(النحل:٨٠).

ففي هذه الآية الكريمة قسم الله تعالى البيوت إلى قسمين : بيوت الحضر المبنية من الحجر ، وبيوت الريف أو المسافرين كالخيم والقباب .

قسم الرازي البيوت على قسمين : (القسم الأول البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت وإليها الإشارة بقوله والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله لا الإنسان ينتقل إليه ، والقسم الثاني القباب والخيام والفساطيط وإليها الإشارة بقوله وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تسخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان).[٢٨]

والسكن هو (كل ما سَكَنْتَ إليه واطمأْنَنت به من أَهل وغيره وربما قالت العرب السَّكَنُ لما يُسْكَنُ إليه) .[٢٩] فهو بعيد عن كل الاصوات التي تزعج الانسان وعن كل شيء ضار سواء أكان من الحشرات أم الحيوانات المفترسة أو الأمراض المتنقلة والمعدية الضارة .

ومن الاساليب البديعية والمحسنات المعنوية الطباق بين قوله تعالى :(يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ).

ومن اللطائف التأويلية لابن عاشور في هذه الآية قوله : (وهذه نعمة الإلهام إلى اتخاذ المساكن وذلك أصل حفظ النوع من غوائل حوادث الجو من شدة برد أو حر ومن غوائل السباع والهوام . وهي أيضا أصل الحضارة والتمدن لأن البلدان ومنازل القبائل تتقوم من اجتماع البيوت. وأيضا تتقوم من مجتمع الحلل والخيام).[٣٠]

وفي معرض الحديث عن البيوت والمساكن نرى أن الآية كلها تشير إلى الجمع في الصيغة منها (البيوت ، الجلود ، الأصواف ، الأوبار إلخ....) وهذه

الجموع المتناغمة المنتظمة تدل على عظم نعمة الله سبحانه وتعالى ، وبيان كرمه وفضله على سائر البشر ، فجعل البيوت السكن بكل ما تزخر فيه من معاني ، سواء أكانت البيوت الثابتة أم المتنقلة . قال تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(النحل:١٨).

ثالثا : البيوت المنحوتة .

في رمال الصحراء وجبالها وأغوارها ، كان قوم عاد وثمود وأصحاب الحجر ينحتون من الجبال بيوتا ؛ ليأمنوا من شر الحيوانات المفترسة والسيول الجارفة والزلازل المخيفة ، فتعد هذه البيوت الفاخرة المنحوتة بأدق الزخارف والتشكيلات الهندسية الفخمة مكاناً آمنا لأقوام عاشت منذ أكثر من خمسة الاف سنة ولا تزال محافظة على أشكالها وزخارفها على الرغم من التغيرات المناخية والتقلبات الجوية التي تعرضت لها كما أخبرنا عنها الله سبحانه وتعالى في كتابه : (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)(لأعراف:٧٤)

وقال تعالى : (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ)(الحجر:٨٢) ، وقال تعالى :)وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ)(الشعراء:١٤٩).

في آية الأعراف يُذكر الله سبحانه وتعالى بالنعم التي أنعمها على قوم ثمود بعد أن أهلك عاد وأبادهم، فأنعم عليهم بطول الأعمار حتى أن الرجل ليفنى بيته ويعيد بنائه وهو لا يزال حيا.

فلما كان الحديث عن تعدد النعم وزيادة الحركة العمرانية على المستويين العمراني بناء القصور المستوية ، والنحت في الجبال وكلاهما توسع في البناء وزيادة العدد في النفوس البشرية لم يأت بحرف الجر (من) كما ورد في الآيات التي تليها بذكر الحرف وكأن كل الجبال جعلوا منها بيوتا ، والإفاضة بالتوسع لا يحتاج (من) وجعل زمن النحت في المضارع المستمر وهذا يدل على استمرارهم في التوسع العمراني واستحضار نحتهم للجبال الضخمة .

ذكر الرازي : (كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وهذا يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفهين) . [٣١]

ومن بديع الفنون البلاغية فن الطباق في الآية بين لفظي الجبال والسهول والجمع بينهما يدل على عظمة النعم التي أنعمها الله عليهم وما بسطه الله لهم من سبل العيش الرغيد والأمان الدائم.

ومن الملاحظ أيضا اللمسات البيانية بين آيتي الحجر والشعراء وما بينهما من أوجه التشابه والاختلاف ، والنكت البليغة والتي نورد منها أولا الفارق بينها وبين آية الاعراف في ذكر حرف الجر (من) هاهنا .

ففي آية الشعراء الحديث يخص الزرع والكلأ والبساتين والجنات والعيون وهذا يدل ان التوسع في البناء أقل فذكر حرف الجر (من) بخلاف ما جاء في آية الأعراف .

ولما كان شمول الزروع وذكر ورود اتوسع العمراني في موضع آخر احتيج لذكر (من) التي تدل على بعض الشيء وما طغى عليه أوسع .

وما يعزز ذكره ما ذكره الدكتور محمد داود : الأصل في هذا التركيب استعمال حرف الجر "من" الدال على ابتداء الغاية والتبعيض معًا، كما في آيتي الحجر والشعراء. أما آية الأعراف فقد تقدَّم فيها حرف الجر "من" في قوله عز وجل: (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا) ، فاكتفى بذكرها في الموضع الأول. كما أن الآية أكَّدت تمكينهم واستخلافهم في الأرض، وعُبِّر عن ذلك بقدرتهم على نحت الجبال لا بعض الجبال.[٣٢]

ولما كثر تكذيب أصحاب الحجر للمرسلين في آية الحجر ذكر قصتهم في زمن المضي ، ثم تجدد الفعل المضارع في قوله :(ينحتون) الدال على الاستمرار في النحت والتنعم بما أسبغ الله عليهم من النعم ولا سيما نعمة الأمن في قوله: (ءامنين) قال ابن عاشور : (أي مقدرين أن يكونوا آمنين عقب نحتها وسكناها. وكانت لهم بمنزلة الحصون لا ينالهم فيها العدو ولكنهم نسوا أنها لا تأمنهم من عذاب الله).[٣٣] واللمسة البيانية هنا إنه لما ذكر التكذيب والإنكار لهم والإعراض

عن آيات الله ذكرهم بأعظم نعمة أنعمها عليهم هي نعمة الأمن وهم في بيوتهم المنحوتة من الجبال وهي الحصن الآمن لهم من كل المخاوف التي تحيط بهم لكنهم زادوا إصرارا وعنادا فنزع الله منهم نعمة الأمن التي لولاها ما حصلت النعم الأخرى .

أما في آية الشعراء فغاير سبحانه بصيغة الفعل فضلا عن قوله :(فارهين) بدلا من (ءامنين) والمغايرة بصيغة الفعل في آية الشعراء (مشتق من الفراهة وهي الحذق والكياسة، أي عارفين حذقين بنحت البيوت من الجبال بحيث تصير بالنحت كأنها مبنية).[٣٤]

ولما كان الحديث عن الجنات والعيون والزروع والثمار غاير في الصيغة وفي اللفظ بما يدل عليه السياق فكان أحق أن يأتي بلفظة فارهين على معنى : نشيطين مستفرهين أي مبالغين في استجادة المغارات ليحفظوا فيها أموالهم وهم آمنين عليها ، وقيل معناه كيسين حذقين .[٣٥]

وهذا يدل على تناسب الكلمة في سياقها فأتى مع ذكر الزروع والجنات بما يدل على التنعم والتكيس والترفّه.

المبحث الثالث

بيوت الحيوانات

أولا : بيوت الحيوانات الآمنة

ثانيا : بيوت الحيوانات غير الآمنة

لم يختص الله (عز وجل) البيوت على الإنسان فحسب ، إنما خص بها الحيوانات أيضا فهداها إلى أن تبني بيوتا تعيش فيها ، وهذه من نعم الله على جميع خلقه .

ولكل نوع من أنواع الحيوانات بيت ومسكن يأوي إليه ويأمن به من جميع المخاطر سواء أكانت بتدخل الإنسان أم من الطبيعة ، فمرة يذكر القرآن بيوت وأخري مسكن للحيوانات، فالبيت أشمل وأوسع معنى ودلالة من المسكن ، فمنها بيوت آمنة ، ومنها غير آمنة ، فمن المساكن الآمنة المذكورة في القرآن مساكن النمل ، وبيوت النحل . أما البيوت غير الآمنة منها بيوت العنكبوت .

أولا : بيوت الحيوانات الآمنة

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن للحيوانات بيوت ومساكن ، منها آمنة

وأخرى غير آمنه فالآمنة منها كبيوت النحل ، كما سمى السورة باسمه وهذا دليل على عظمة هذا المخلوق الصغير الذي تتجلى فيه قدرته سبحانه بقوله :(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)(النحل:٦٨)، هذه الآية تكشف لنا أدق التفاصيل العلمية في حياة هذا المخلوق ذا النظام الهندسي العجيب ، فكيف بنحلة حشرة صغيرة لديها القدرة في بناء هكذا بيوت بأشكال منتظمة لا اختلاف فيها بزيادة أو نقصان؟

ذكر الفخر الرازي أن الوحي فيها هو: (الإلهام والمراد من الإلهام أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه الأول أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار ، والثاني أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة).[٣٦]

والبديع في هذه الحشرات أن لها فصائل كما أن للإنسان فصائل وعشائر مختلفة ، فمنها تسكن الشجر ومنها تسكن الجبال ، ومنها ما تسكن عرائش التي تكون برعاية البشر .

وقد ذكر الرازي لمسة بيانية في هذه الآية وفي ذكر (من) قائلا : (فإن قيل ما معنى (من) في قوله : (أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) وهلا قيل في الجبال وفي الشجر ؟ قلنا أريد به معنى البعضية وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وشجر بل في مساكن توافق مصالحها وتليق بها). [٣٧]

ولما سخر الله سبحانه وتعالى النحل لخدمة ومنفعة الإنسان مكنه من الإيحاء بأمر من الله أن يقوم بهذا الأعمال الفطرية ، مؤمنا له هذه البيوت الهندسية الشكل ، بحيث

تكون مصنعا آمنا له من كل الحشرات والجراثيم والاخطار الخارجية كما لو كان مع الإنسان ذلك .

ومن الاساليب البلاغية في هذه الآية الكريمة فن الاستعارة في قوله :(اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً)

إذ شبه بناء النحل لبيوتها التي تحفظ فيها العسل بالبيت ، فاستعار لفظ البيت الذي يبنيه الانسان ليسكن فيه من جميع المخاطر على طريقة الاستعارة التصريحية .

ومن البديع أن الله أتى مع النحل بلفظ البيت دون المسكن ، أما مع النمل قالت نملة المساكن فما الفرق بين البيت والمسكن ؟

أن المسكن مقسم إلى حجرات ليرتاح فيها الإنسان ويستكن بها فيحل بها الطمأنينة والأمن ، أما البيت فهو عبارة عن مساحة واحدة غير مقسم فقد يكون مسكنا آمنا وقد لا يكون .

والبيت قد لا يتوافر فيه الراحة والسكن والطمأنينة كما في السكن ؛ لأنه من السكون والراحة والطمأنينة .

ومما ورد ذكره في القرآن الكريم من مساكن الحيوانات مساكن النمل في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)(النمل:١٨).

فقول النملة هنا : ادخلوا مساكنكم فالمساكن هي عبارة عن المخازن المقسمة والمؤمنة لهم في الشتاء كما هي مأوى لهم من جميع المخاطر والدليل على ذلك أنها تنبهت من ذلك الخطر المحدق ، فنادتهم بالدخول السريع إلى المساكن.

ذكر أهل التأويل أن النملة هي أسم جنس يطلق على المذكر والمؤنث ، ولا تؤنث إلا عندما نقول نملة أنثى أو نملة ذكر ، وهذه النملة كانت أنثى والدليل أن الله تعالى قال : ((قالت)).

وقيل أنها كانت ملكة النمل ، وخصت بالتسمية لنطقها ، وإلا لا يكون للنملة أسم علم.[٣٨]

ومن عظمة الله في خلقه أنه تعالى سمى السورة باسم هذه الحشرة الصغيرة ، ومن بديع القول أنه عدى بحرف الاستعلاء (على) الذي يفيج الفوقية ، فعدى (أتوا) بـ بحرف الجر (على) لأن الإتيان كان من فوق الوادي .[٣٩]

ومن الفنون البلاغية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى على لسان هذه الحشرة الصغيرة البليغة ، أحد عشر أسلوبا من الاساليب البلاغية أولها : النداء الطلبي فقد نادت النمل بأداة النداء (يا) التي ينادى بها للبعيد فنادت بها للقريب ، فنادت بها عندما شعرت بأن النمل قد يكون ساهيا أو غافلا مما يواجهونه من خطر التحطيم ، والثاني أنها كنت (أي) كناية عن جميع النمل باسم الواحد ، والأمر الثالث : أنها أتت بـ (ها) أيها للتنبيه عما يقدم عليهم من خطر ، والرابع : أنها تأمرهم بأسلوب الأمر (ادخلوا) وهنا الأمر خرج لمعنى التحذير والتنبيه من خطورة الموقف ، والخامس : الاستعارة في قولها ((لا يحطمنكم)) والحطم في الحقيقة الكسر للأشياء الصلبة فاستعير هنا للدهس بجامع الهلاك لجميع أفرد النمل ، والسادس : التخصيص فيقولها (سليمان) لكونها تعرفه بالنبوة من جهة وهو من يفهم لغة الحيوان من جهة أخرى فكان معروف عند الجميع ، ثم السابع : التعميم بقوله : (وجنوده) وهذا ما يعم جميع الجند تحت لواء سيدنا سليمان (عليه السلام).

يا لنباهتها !!!

أفلا نتعلم من نملة ؟ لما أدركت الخطر، أخذت بالأسباب، وحذرت قومها. فلنا منها عبرة وعظة فيما حل بنا من بلاء وما نزل بنا من مصاب.

ثانيا : بيوت الحيوانات غير الآمنة

بيت العنكبوت مثلا يضرب ببيوت الحيوانات غير الآمنة ، تلك الشبكة

الواهنة التي يلف بها العنكبوت نفسه ظنا انه يحمي نفسه وفريسته من الاخطار الخارجية ، لكنها شبكة ضعيفة غير آمنة يسهل خرقها ، ويمكننا أن نرى العنكبوت بداخلها بسهولة . وقد سمى اله سبحانه السورة بالعنكبوت (سميت " سورة العنكبوت " لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلا للأصنام المنحوتة ، والآلهة المزعومة (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً).)العنكبوت: ٤١).[٤٠]

ورب سائل يسأل لِمَ خصت بالذكر بيوت الحيوانات غير الآمنة وهي غير آمنة فعلا ونحن نبحث عن الآمن منها ؟ والجواب على ذلك :

إنما ذكرت بيوت الحيوانات غير الآمنة مثلا لمن يستعين بغير الله في حفظه ، ويلوذ بغيره سبحانه في الملمات ، كما تمثل البيوت الحقيقية غير الآمنة من حيث التحصين في البناء ، والتحصين في أخذ الحيطة والحذر ممن يكون مصابا بمرض أو آفة ولا يأخذ بالأسباب التي تأخذه إلى بر الأمان فسيكون عرضة للمرض والوهن كما هو الحال مع بيت العنكبوت في وهنه وضعفه.

ويذكر الله (عز وجل) الآية مفصلا فيها الضعف والهوان إذ يقول سبحانه : (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ٤١).

ذكر الرازي الحكمة في هذا المثل قائلا: (أن البيت ينبغي أن يكون له أمور حائط حائل وسقف مظل وباب يغلق وأمور ينتفع بها ويرتفق وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع فإن من لا

يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء). [٤١]

ومن الفنون البيانية في الآية فن (التشبيه التمثيلي) إذ يشبه الله سبحانه حال من يتخذ وليا من دونه كالأصنام وغيرها ويعبدونها من دون الله ويدعونها خوفا وطمعا ، ويتشفعون بها بحال العنكبوت التي اتخذت بيتا فكما ان بيتها لا يدفع عنها حرا ولا بردا ولا ريحا ولا أذى ، فكذلك الاصنام التي لا تملك لمن يلوذ بها نفعا ولا ضرا ولا رزقا ولا خيرا ، فشبه الله الهيئة بالهيئة حال الكفار بحال العنكبوت ، ووجه الشبه صورة منتزعة من متعدد .

وفي التكرار (للعنكبوت) و (البيت) تأكيدا على ضعف هذا المخلوق العجيب ، وضعف بيته الذي لا يقيه حرا ولا بردا ولا نفعا ولا ضرا .

ومن اللمسات البيانية أن الله سبحانه ذكر أنثى العنكبوت والدليل أنه قال : (اتخذت) بمعنى أنها كانت أنثى ومن بين وجوه الإعجاز إذ يقال : أن أنثى العنكبوت هي من تقوم بعمل البيت. ومن جهة أخرى فقد أثبت العلم الحديث أن ذكر العنكبوت بعد أن يقوم بتلقيح الأنثى تقوم الأنثى بافتراسه فتتغذى على لحمه طيلة فترة حضانة البيض وبعد أن يفقس البيض تتغذى اليرقات على أضعفها ثم بعد أن يقوى ويشتد عود ما تبقى من الصغار تقوم بأكل أمها ؛لأنها أصبحت أضعف الموجود ثم يلقح الذكر الأنثى ثم تقوم بأكله وهكذا ، ومن هنا فإن الضعف في بيت العنكبوت في ضعف الترابط الأسري بين أعضائه . [٤٢]

فما لنا في هذه البيوت غير الآمنة إلا العبرة والدروس المنتقاة في ترابط الاسرة وتكاتفها في جميع مجالات الحياة العامة والخاصة .

الخاتمة

قبل أن نختم هذه المدارج القرآنية المباركة لا بد لنا أن نذكر أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة ونوجزها بالآتي:

١- تنطوي المدارج بمدلولها اللغوي والاصطلاحي حول المنزلة والدرجة العالية أو المرتبة ، ومنه الطريق الذي يتفرع إلى طرق ، أو قد يرد بمعنى المذهب والطبقة ، فتعدد المعنى يصب في بوتقة واحدة وهو اختيارنا للمدرج أي بمعنى التسلسل أو التدرج فيما هو مهم عما هو أقل منه أهمية .

٢- يعتبر الحجر الصحي من أهم الوسائل الصحية في الحد من الأوبئة والأمراض المعدية ، فهو يُنبئ عن خطر محدق وسيل عارم يحرق الأخضر واليابس ، أفلا ندرك هذا الخطر كما أدركته نملة ؟ يا لنباهتها ! عندما أدركت الخطر ، رفعت صوتها وحذرت قومها وقالت : (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)(النمل:١٨)

٣- يتجلى الإعجاز النبوي بفوائد كثيرة منها : منع الشخص الماكث في الاراضي الموبوءة حتى وأن كان غير مصاب أن لم يستطع الخروج ، فعليه أن يلزم مكانه فهو كالصابر في الزحف كما وصفه النبي(صلى الله عليه وسلم).

٤- من البيوت الخاصة بحسب الرتبة بيت الله الآمن ، ويعد المكان الوحيد الآمن على وجه الأرض . أما بيوت الأنبياء كانت تشمل البيوت الثابتة كبيوت قوم موسى (عليه السلام) عندما امرهم الله سبحانه أن يتخذوا من جوف بيوتهم مساجد لشدة خوفهم من فرعون ، بعد أن قام بهدم المساجد.

٥-أما البيوت المتنقلة فكانت سفينة نوح كناية عن نسبة البيت الذي سكنه هو ومن تبعه من المؤمنين والمؤمنات ، ملاذا آمنا لهم ومكانا يتعبدون فيه ويدعون الله خلاصا من الظالمين والخارجين عن دينه بعد أن نجاهم الله من الطوفان .

٦-ومن البيوت العامة ما كانت من غير تدخل الأنسان ومنها الكهوف والمغارات فهي تحميهم من كافة المخاطر ، وهي الصورة الأولى التي عاشها الإنسان منذ آلاف السنين. ليس هذا محسب فالمخاطر متعددة فقد تكون أمراضا متنقلة ومعدية وقد تكون حيوانات مفترسة أو ما شابه ذلك مما ذكر أنفا .

٧-البيوت العامة المبنية بتدخل الأنسان ، لتكون هذه البيوت الملجأ والمأمن له من جميع المخاوف من جهة ، والسكن والراحة من جهة أخرى. وقد ذُكرت في الآية أن لهذه البيوت قسمان منها بيوت الحضر المبنية من الحجر ، وبيوت الريف المصنوعة من القماش كالخيام والقباب . فجعل البيوت السكن بكل ما تزخر فيه من معاني ، سواء أكانت البيوت الثابتة أم المتنقلة

٨-من البيوت المنحوتة المذكورة في القرآن الكريم بيوت عاد وثمود وأصحاب الحجر كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ؛ ليأمنوا من شر الحيوانات المفترسة والسيول الجارفة والزلازل المخيفة ، فتعد هذه البيوت الفاخرة المنحوتة بأدق الزخارف والتشكيلات الهندسية الفخمة مكاناً آمنا لأقوام عاشت منذ أكثر من خمسة الاف سنة.

٩- لم يختص الله (عز وجل) البيوت على الإنسان فحسب ، إنما خص بها الحيوانات أيضا فهداها إلى أن تبني بيوتا تعيش فيها ، وهذه من نعم الله على جميع خلقه فمنها

بيوتا آمنة كبيوت النحل والنمل ، ومنها غير آمنة كبيوت العنكبوت .

١٠- إنما ذكرت بيوت الحيوانات غير الآمنة مثلا لمن يستعين بغير الله في حفظه ، ويلوذ بغيره سبحانه في الملمات ، كما تمثل البيوت الحقيقية غير الآمنة من حيث التحصين في البناء ، والتحصين في أخذ الحيطة والحذر ممن يكون مصابا بمرض أو آفة ولا يأخذ بالأسباب التي تأخذه إلى بر الأمان فسيكون عرضة للمرض والوهن كما هو الحال مع بيت العنكبوت في وهنه وضعفه.

وختاماً ... أحمد الله على نعمة الأمن والأمان أولاً وآخراً الذي بنعمه تتم الصالحات ، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش:

---

[١] () مروج الذهب :٣ / ١١٩.

[٢]) العين : مادة ، (درج) : ٧٧/٦ .

[٣]() ينظر: القاموس المحيط : مادة (درج) : ١ / ٢٤٠ .

[٤]) ينظر : لسان العرب ، مادة (درج) : ٢٦٦/٢ .

[٥]) مختار الصحاح : مادة (درج) : ١/ ٢١٨ .

[٦]) ينظر : مجاز القرآن : ١٥ .

[٧]() المفردات في غريب القرآن : ١٦٧ .

[٨] () التوقيف على مهمات التعاريف : ٣٣٥- ٣٣٦ .

[٩]) صحيح مسلم : ٧/ ٢٦ ، رقم الحديث : (٥٩٠٣) ، باب الطَّاعُونِ وَالطِّيَرَةِ وَالْكَهَانَةِ وَنَحْوِهَا.

[١٠]) مسند أحمد : ٣/ ٢١١ ، رقم الحديث : (١٦٧٨) .

[١١]) مسند أحمد : ٢٢/ ٣٦٥ ، رقم الحديث : (١٤٤٧٨) .

[١٢]) ينظر : الدر المصون : ٢ / ١٠٤ .

[١٣])) مفاتيح الغيب : ٤ / ٤٢ .

[١٤]) البحر المحيط : ١/ ٥٥١ .

[١٥]) ينظر معاني القرآن للأخفش : ١٥٤ .

[١٦]) درة التنزيل وغرة التأويل : ١٥-١٦ .

[١٧]() ينظر : معاني القرآن للفراء : ١ / ٤٧٧ . ، وجامع البيان عن تأويل آي القران : ١٥ / ١٧٢.

[١٨]) الكشاف : ٢/ ٣٤٦.

[١٩]) روح البيان : ١٠ / ١٤٣ .

[٢٠]) التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٩٩.

[٢١]) الدر المصون : ١٠ / ٤٧٨ .

[٢٢]()أسئلة بيانية في القرآن الكريم: ١١٥-١١٦.

[٢٣]() الحذف بين النحويين والبلاغيين: ١٦٩.

[٢٤]() ينظر: الحجاج في القرآن الكريم: ١/٤٨٠.

[٢٥]() تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم: ١/٥٣٠.

[٢٦]() المصدر نفسه: ١/٥٣٢.

[٢٧]() ينظر: التحرير والتنوير: ١٣/١٩٤.

[٢٨]) مفاتيح الغيب : ٢٠ / ٧٤ .

[٢٩]) لسا العرب ، مادة (سكن) :١٣ / ٢١١.

[٣٠]) التحرير والتنوير : ١٣/ ١٩٠ .

[٣١]) مفاتيح الغيب : ١٤ / ١٣٣ .

[٣٢]) ينظر : معجم الفروق الدلالية : ٦٠٥ .

[٣٣]( ) التحرير والتنوير : ١٣ / ٥٩ .

[٣٤]) المصدر نفسه : ١٩ / ١٨٢ .

[٣٥]) ينظر : البحر المحيط : ٧ / ٣٤ .

[٣٦]) مفاتيح الغيب : ٢٠ / ٥٦ .

[٣٧]) مفاتيح الغيب : ٢٠ / ٥٧ .

[٣٨]) ينظر : حدائق الروح والريحان : ٢٠ / ٤٠٠-٤٠١ .

[٣٩]) ينظر : الكشاف : ٣ / ٣٦٠ .

[٤٠]) صفوة التفاسير : ٢/ ٤٢٤. من المكتبة الحية .

[٤١]) مفاتيح الغيب : ٢٥ / ٦٠ .

[٤٢]) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الرابط :

https://www.facebook.com/miracle.quran.sunna/posts/377843418935238/

المصادر والمراجع

*القرآن الكريم .

١- أسئلة بيانية في القرآن الكريم: د. فاضل السامرائي، مكتبة الصحابة، الإمارات، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٢- البحر المحيط: محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٣- التحرير والتنوير «تفسير ابن عاشور»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد

الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٤- تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٥- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم: د. زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٦- التوقيف على مهمات التعاريف: الإمام عبد الرؤوف بن المناوي (ت ١٠٣١هـ)، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .

٧- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة، جامعة منوية، منشورات كلية الآداب بمنوية، ٢٠٠١م.

٨- حدائق الروح والريحان في روابي القرآن: محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف د. هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٩- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، بلات .

١٠- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ)، رواية ابن أبي الفرج الأردستاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

١١- روح البيان: إسماعيل حقي البروسوي (ت ١١٣٧هـ)، دار إحياء التراث العربي . بلا ت .

١٢- صحيح مسلم «الجامع الصحيح»: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٢٦١هـ)، دار الجيل، بيروت، بلات.

١٣- صفوة التفاسير: محمد بن علي الصابوني، دار الجيل، بيروت، بلات.

١٤- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق
د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي ، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٢م.

١٥- قاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٤م.

١٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١٧- لسان العرب: الإمام العلامة جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الأفريقي (ت ٧١١هـ)، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٨- مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت ٢١٠هـ)، تعليق د. محمود فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، بلات.

١٩- مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي ، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ، الطبعة طبعة جديدة ، ١٤١٥ – ١٩٩٥.

٢٠- مروج الذهب :لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ - ٩٥٧م) ، راجعه : كمال حسين مرعي ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م .

٢١- مسند أحمد : أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م .

٢٢- معاني القرآن: أبو زكريا يحي بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٣- معاني القرآن للأخفش : لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) ، تحقيق الدكتورة هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

٢٤- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم : الدكتور محمد محمد داود ، دار غريب - القاهرة ، ٢٠٠٨م .

٢٥- مفاتيح الغيب «التفسير الكبير»: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي (ت ٦٠٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٦- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، ط٥، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

الرسائل والاطاريح :

١- حذف بين النحويين والبلاغيين «دراسة تطبيقية»: حيدر حسين عبيد، «أطروحة دكتوراه»، كلية الآداب/ الجامعة الإسلامية — بغداد، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

المواقع :

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الرابط

https://www.facebook.com/miracle.quran.sunna/posts/3778434189352381/